وزراة التعليم العالي والبحث العلمي

المركز الجامعي صالحي أحمد ـ النعامة ـ

معهد الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر، تخصص أدب عربي حديث ومعاصر

الرحلة العلمية دراسة في الموضوع والشكل

إعداد الطالبتين:

✓ دريسي فاطمة

✓ مخلوف أمينة

إشراف الأستاذ:

✓ موساوي أحمد.

السنة الجامعية:

1441 ـ 1442

2020 ـ 2021

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

"من لم يشكر الناس لم يشكر الله"

نتوجه بالشكر أولاً لله سبحانه وتعالى الذي أعاننا على إنجاز هذا العمل المتواضع، ثم نثني على من تتبع خطواتنا بالتوجيه والإرشاد.

ولذلك نخصص التقدير والامتنان للأستاذ "**مساوي أحمد**" الذي تتبع هذه المذكرة من بدايتها، وتعدها بملاحظاته القيمة فجزاه الله عنا خير الجزاء، وساعدنا بحكمته وتوجيهه وكان لنا نعم المشرف أدامه الله.

كما أتقدم بفائق الإحترام والتقدير العظيم إلى كل أساتذة اللغة العربية وآدابها.

إهداء

أهدي ثمرة جهدي هذا:

إلى من قال الله فيهما:﴿وخفض لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا٢٤﴾ صدق الله العظيم.

إلى رمز الوفاء والعطاء إلى نبع الحنان الذي لا ينفذ إلى التي جعلت يوم نجاحي يوما لنجاحها –والدتي الحبيبة-

إلى القلب الرحيم والرجل العظيم الذي لقنني دروس الفضائل إلى من علمني أن الدنيا صمود ومشاكلها دون حدود إلى من علمني أن الحياة كفاح والعلم سلاح -والدي العزيز-

إلى سندي الروحي وزوجي الفاضل، الذي كان المشجع الأكبر على تخطي كل الصعوبات.

إلى من أرى في أعينهم أسمى آيات المحبة إلى من تربيت بينهم في كنف الإخوة والإخلاص إخواني وأخواتي الأعزاء.

إلى كل الأهل والأقارب من كبيرًا أو صغير، من بعيد أو قريب.

إلى الأستاذ المشرف على البحث.

إلى صديقتي "فاطمة دريسي" التي قاسمتني مشقة هذا البحث.

مخلوف امينة

إهداء

إلي روح أمي الطاهرة إلى من كان دعاؤها سر نجاحي و حنانها بلسم جراحي

التي كانت غاية المنى لديها رؤية وأنا أحقق نجاحي.

إلى دعامتي في حياة والدي العزيز حفظه الله.

الى سندي الروحي و زوجي الفاضل الذي كان المشجع الأكبر على تخطي كل

الصعوبات مصطفي.

طائري صغرين سيف الدين و إياد صهيب.

إلى جميع الإخوات و الإخوة كل الأصدقاء و الأحبة.

وخاصة صديقتي مخلوف أمينة التي شاركتني في هذا البحث.

ذهريسي فاطمة

مقدمة

مقدمة:

عرفت المجتمعات العربية عدة فنون مرتبطة بتراثها الأدبي المختلف، كالقصة والرواية والمسرحية والشعر، فإذا قلنا إن فنّا من هذه الفنون يتعرض في مضمونه إلى ناحية من نواحي الحياة فإننا نقول أيضا أن نمط الرحلات يتعرض إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد إذ تتوفر فيه مادة وغيره مما يهم المؤرخ الجغرافي وعالم الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الآداب والأدبيات، فالرحلات منابع ثروة لمختلف العلوم وهي في مجموعها سجّل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة.

أذى الرحالة العرب وغيرهم مهمة سامية للأجيال القادمة إذ أسهمت كتاباتهم في نقل الكثير من الصور الجميلة والمشاهد المميزة لكثير من البلدان وطبيعتها الجغرافية وظروفها المعيشية، وسلطوا الضوء على تاريخ هذه البلدان وأفكار سكانها وعاداتهم وتقاليدهم قد تتفق وتختلف، وقد تتفق مع عادات البلاد التي جاء منها هؤلاء الرحالة فأسهموا بذلك في نقل بعض ثقافات الشعوب الأخرى وإثارة الاهتمام بها، وتشجيع المهتمين من العلماء على زيارة تلك البلاد للأخذ من معارفها وعلومها.

تضم كتب الرحلات في تراثنا العربي كثيرًا من المعرف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية وهذا ما يدونه صاحب تدوين المشاهد، ذلك من جراء اتصاله المباشر بالطبيعة وبالنفس وبالناس والحياة.

ولعلّ الحافز القوي الذي جعلنا نستقي موضوع الرحلة من بين الفنون الأدبية، هو ذلك الشغف الشديد لمعرفة خبايا وأسرار الرحلات وما تحمله من مغامرات وعادات بالإضافة إلى تقاليد الشعوب وبالأخص من ناحية العالمية التي ركزنا عليها في بحثنا، وهذا الموضوع الشيق الملفت للإنتباه جُذِبنا إليه ليكون موضوع مذكرة تخرجنا، حيث قمنا بإستقصاء بعض المعلومات ولو لم تكن بالكم الكبير إلا أننا نحمد الله على كل شيء.

وفي هذا السياق نحاول الإجابة عن مجموعة من الأسئلة من أهمها:

ما مفهوم الرحلة؟ ما هي الرحلة العلمية؟ وما أهميتها؟ من هو اِبن حمادوش؟ وما قيمتها في الأدب العربي؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية اِتبعنا الخطة التي اِنقسمت إلى مدخل وفصلين، فأما مدخل تناولنا فيه مفهوم الرحلة لغة واِصطلاحًا، والرحلة في القرآن والسنة النبوية، كما تحدثا عن مفهوم أدب الرحلة وأهم أغراض الرحلة، بينما تطرقنا في الفصل الأول إلى تحديد بعض المفاهيم المتعلقة بالرحلة إذ حددنا مفهوم الرحلة العلمية لغتًا واِصطلاحًا، وتحدثنا عن الرحلة العملية من حيث البحث والاِستكشاف، ثم تطرقنا إلى قيمة الرحلة العلمية والأدبية.

أما الفصل الثاني فهو عبارة عن دراسة تحليلية لرحلة "اِبن حمادوش" من الناحية العلمية، حيث قمنا بدراسة هذه الرحلة من حيث موضوعها وشكلها كما عالجنا أسلوب الرحلة ومنهجها.

ومن جملة المصادر والمراجع، اعتمدنا على مصدرين مهمّين لأبو القاسم سعد الله الطبيب الرحالة والمصدر الثاني رحلة "اِبن حمادوش"، إلى جانب مراجع أخرى.

واجهتنا صعوبات عدة منها قلة المصادر والمراجع التي تناولت هذه المدونة كما حاولنا الإلمام بالموضوع. وبعون الله وحمده وبمساعدة الخيرين من الأساتذة والباحثين تم إنجاز العمل وإتمامه فالحمد لله أولا، والشكر كل الشكل لكل من مدّ لنا يد العون أو ساهم معنا من قريب أو بعيد في إنجاز هذا العمل المتواضع، وبخاصة الرجل الذي تبنى فكرة الموضوع وتتبع خطواته وأشرف على إنجازه الأستاذ الدكتور موساوي أحمد آدم الله عطاءه.

ونتقدم بشكرنا الجزيل إلى أساتذتنا في لجنة المناقشة رئاسة وأعضاء لتفضلهم علينا بقبول هذه الرسالة، فهم أهل لسد خللها وتقويم عوجها، والإبانة عن مواطن القصور فيها، سائلاً الله الكريم أن يثيبهم عنا خيراً.

المدخل

الرحلة الماهية

والنشأة

أولا: الرحلة لغة

رحل: الراء والحاء واللام أصلُ واحد يدل على مُضي في سفر، يقال: رحل يرحل رحلة، وجملُ رحيل ذو رُحلة إذ كان قويا على الرحلة.

والرحلة: الارتحال، فأما الرُحل في قولك هذا رُحل الرجل لمنزله ومأواه، فهو من هذا لأن ذلك إنما يقول في السفر لأسبابه التي إذا سافر كانت معه. يرتحل بها و اليها عند النزول. هذا هو الأصل ثم قيل لمأوى الرجل في حضره.

الرّاحلة: المركب من الابل ذكر كان أو أنثى، ويقال راحل فلان فلانا إذ عاونه على رحلته، ورحله إذ أظعنه من مكانه وأرحله أعطاه راحله.[1]

أما الرحلة في قاموس الوسيط، الرحلة: الارتحال، والجمع: رَحل، وفي التنزيل العزيز (رحلة الشتاء والصيف).[2]

الرّحلُ: ما يوضع على ظهر البعير للركوب.

يقول ابن منظور في لسان العرب عن الرحلة في اللغة، الرّحيل والارتحال، بمعنى الأشخاص والإزعاج، يقال رحل الرجل إذ سار.[3]

فالرحلة هنا بمعنى السير والضرب في الأرض، وجاءت الرحية بمعنى الارتحال أي الانتقال من مكان لآخر، "والرحل والارتحال الانتقال، وهو الرحلة اسم للارتحال".

---

[1]– معجم مقايس اللغة، بيروت، صدر سنة 1971، ص 516.

[2]– المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، صدر 1960/1379.

[3]– لسان العرب لابن منظور الأفريقي المصري، بيروت، دار صادر، ج/11، ص 276.

ثانيا: اصطلاحا

إن وجود الإنسان على هذه الأرض يفرض عليه أن يكون دائم الحركة كثير التنقل، لاقيا في ذلك الجهد والعناء، فتلك طبيعة حياة البشر، ومتطلبات الحياة، والرحلة كما تمت الإشارة إليه هي بكل بساطة قطع مسافة معينة بين نقطتين في فترة زمنية محددة وغرضا محددا، ما يؤكد وما يحرص عليه الكثير من المهتمين بدراسة الرحلات، إذ أن الرحلة الحقيقية هي تلك التي تتأسس على القصدية، لذلك يشترط أن يكون لها نقطة انطلاق معلومة، ونقطة وصول.[1]

وجدنا فيما ذكرنا آنفا في معنى الرحلة، جاءت بمعنى السير والانتقال والوجهة أو المقصد الذي يراد السفر إليه، وبمعنى دنو المكان المراد الوصول إليه أو اقتراب وقت الرحيل، ولهذه المعاني كلما كان لفظ رحلة يطلق على من انتقل من مكان لآخر، ومنه أخذ لفظ رحال: وهو الشخص المنتقل من مكان لآخر.

ثالثا:مفهوم الرحلة

تعد الرحلة شكلا من أشكال البحث عن المجهول ومحاولة الاستكشاف لذلك حلق الله الإنسان محبا للحركة والتنقل، وأمده بالعقل الذي يدعوه لذلك، والجسم القوي الرشيق الذي يعينه على الانتقال من موضع لآخر، بحثا في البداية عن طعامه وشرابه، هربا من القوى المعادية.[2]

أ-الرحلة لغة

تعني لفظة "رحلة" السير، الترحال، الجهة التي يقصدها الرجل، وقيل السفرة الواحدة[3]، يقال: مضى القوم من المكان: أي عبروا وانتقلوا، وكلمة رحلة، مصدر اشتق من فعل رحل، منه الارتحال

[1]– فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، ط2، مكتبة الدار العربية للكتاب، مدينة نصل، يوليو2002، ص 17.
[2]- فؤاد قنديل، المرجع نفسه، ص18.
[3]– ابن منظور، لسان العرب، ط1، دار صادر، مادة رحل، بيروت، 1990، ص 279.

بضم الوجه الذي تقصده السفرية الواحدة، يقال راحله أي عاونه على راحلته أي استرحل، سأله أن يرحل له، ومنها هذا رحِل الرجل، أي منزله ومأواه فهو من هذا لأن ذلك يقال في السفر لأسبابه، التي إذا سافرت كانت معه يرتحل بها عند النزول وهو الأصل.[1]

وتطلق كذلك على "الدابة إذا سمنت: أرحلت بعد هزال، فأطاقت الرحلة.[2]

يتجلى لنا من خلال ما سبق ذكره أن لفظ "رحل" حظيت بمقومات دلالية عدة إلا أن جل معانيها المختلفة تنصب حول السير والانتقال والترحال إلى المقصد المراد السفر إليه، فالشخص الذي يقوم بالرحلة هو بطبيعة الحال سيترك وطنه وبلده الأصلي وعن اكراه أو رغبة، وهنا يكمن السر في الترحال.

ذا أردنا مقارنة اللفظة بمقابلها الأجنبي فنلاحظ أن السفر أو الرحلة تحملان نفس المعنى Voyage، والفعل المشتق منها "Voyager"، أي سافر أو رحل، والفاعل:"Voyageur "[3].

ب- اصطلاحا:

لا يختلف كثيرا مفهوم الرحلة اصطلاحا عن مفهومها لغة إذ يشتركان في صفة الارتجال و الحركة والتنقل إلا أننا نلمس من خلال عرض أقوال بعض الأعلام الإشارة إلى الفوائد التي يجنيها الإنسان من وراء الرحلة مثلما نجد في قول أبي الحسن علي يجنيها الإنسان من وراء الرحلة.

وهذا القول يوضح لنا أخذ العلم، والمعرفة والأخبار من منابعها الأصلية و الوصول إلى الحقيقة بالمشاهدة الفعلية وعدم الاكتفاء بالقراءة والسماع الأخبار .

[1]– الفيروز أبادي محمد الدين بن محمد بن يعقوب، المحيط، ط3، دار الجيل، ج3، بيروت، ص 309.

[2]– أبو الحسن علي المسعودي: مروح الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق سعيد محمد اللحام، د.ط، ج1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000، ص 20.

[3]– عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، د.ط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2004، ص 560.

ويؤكد عبد الرحمان بن خلدون أهمية الرحلات في زيادة معارف المتعلم وإثرائها وتنميتها فيقول "الرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال.

والرحلة أيضا هي" لون من تأليف الذي يجمع بين الدافع العميق و التأمل الدقيق في رصد المشاهدات والظواهر بأناة حقيقية و البحث عن الأسباب و النتائج ببصيرة واعية".[1]

إن الرحلة بهذا المفهوم ذات منطلق ذاتي ينطلق من ذات الشخص أو الرحالة من خلال الدافع الداخلي العميق يأخذ به إلى الرحلة أو بالأخرى يجعله يفكر في السفر و مشاهدة الظواهر و الاستكشاف بذاته و يبحث بكل دقة في السفر و مشاهدة الظواهر و الاستكشاف بذاته و يبحث بكل دقة محاولا في ذلك الوصول إلى النتائج المتوخاة.

ويرى الشيخ حسين فهيم في الرحلة، فرصة لمشاهدة عجائب الدنيا، ويراها عنصرا أساسيا لتجارب الإنسان في حياته فيقول: "السفر مرآة الأعاجيب وقسطاس التجارب".[2]

إن الرحلة قد ساعدت على اكتشاف مواطن الإنسان أي كوكبه الأرضي، كما أدت بهذا الإنسان أن يدرك مدى انتشاره في بقاعها، وأن البشر سلكوا من نواحي مختلفة، وتعددت ألسنتهم، إلى جانب تنوع طرائف حياتهم.[3]

---

[1] -Larousse: le dictionnaore de français, omega international sarl spéciale algérie, 2001,"voyager"p459.

[2]– محمد بن عثمان المكناسي، الاكسير في فكاك الأسير، تح: محمد علي الفاسي، د.ط، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965، ص 01.

[3]– أبو الحسن أحمد، بن فارس الرازي ، مرجع سابق

رابعا:مفهوم أدب الرحلة

عرف إنعام الحق غازي أدب الرحلة نقلا من إحدى معاجم المصطلحات الأدبية، حيث قال: "هو جنس أدبي مهمل وذو تنوع كبير وترجع أصوله إلى العصور القديمة، وقد ساهم فيه كثير من الكتاب الخبراء المشهورين كما أنه وغيرهم من الناس منهم الدبلوماسيين والعلماء والدعاة والأطباء وأصحاب الجيش والبحريين، وهذا الجنس الأدبي يضم الأعمال التي تتصل بالاستكشاف والمغامرات، كما أنه يشمل على سجل الملاحظات التي دونها الراحلون عن الأراضي الأجنبية.[1]

كان الرحالة في العصر القديم مغامرا أو محبا للفنون أو كان راغبا في رؤية المناظر الأجنبية، ومعرفة العادات الغربية بالإضافة إلى كونه كاتبا إبداعيا.

وترى قدسية قريشي أن الرحلة فنا منفرد بين الفنون البشرية الأخرى، وذلك لأن كل رحالة يسوغ مشاهدته بصياغة تخصه، ولا نستطيع أن نقول إن كل رحلة توفر متعة ولكن يمكننا أن نعتبر الرحلات من حيث العموم، تتسم بصياغة أدبية جذابة.

وقالت عواطف محمد يوسف نواب عن أدب الرحلة والرحالة: " الشخص الذي قام بالرحلة قد ترك موطنه وقصد جهة أخرى غير موطنه وسار إليها". لذا كان لفظ رحلة أعم وأشمل ما يطلق على المسافر من مكان إلى آخر، فالرحال صفة مشتقة من الفعل الذي قام به هو الرحلة.[2]

ذكر أنور سديد العناصر المهمة لأدب الرحلة، وهذه بعض العناصر من كتابه:

[1]–حافظ محمد بادشاه، "الحجاز في أدب الرحلة العربي""، مذكرة تخرج في إطار شهادة دكتوراه، سنة 2010/2009.

[2]– عواطف محمد بن يوسف نواب، الرحلات المغربية الأندلسية–دراسة تحليلية مقارنة–، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1996، ص 41.

* الرحلة هي تلك الكتابة الأدبية التي تتميز بالسرد والتي يجمع الرحالة مادتها خلال مشاهدته في الأراضي الأجنبية.

*تتضمن الرحلة الأحوال والانطباعات والمعلومات التي تتراكم لدى الرحالة خلال سفره.

*كما يتمتع الرحالة بدقة النظر وعمق وكثرة تفاصيله، فالناظر العادي يذوب في تحديد المنظر الجغرافي وبيان سماته الخارجية والحديث عن أهل البلد مركزا على الإحصائيات وما شابه ذلك من المعلومات.

*تتكون الرحلة من الأفكار والعواطف ذات الآثار السلبية والإيجابية.

*يضم الرحالة عواطفه العميقة إلى الأوضاع الخارجية، وبذلك يعبر عما يدور في قلبه، ومن هنا يتميز أسلوب الرحلة، حيث أصبح أسلوبا أدبيًا مؤثرًا.

خامسا:أغراض الرحلة:

أشار فؤاد قنديل في كتابه "أدب الرحلات"، ولكي ألخص هنا وأذكر أهم الدوافع التي تحُث الإنسان على الرحلة متعددة ومختلفة، وتختلف من شخص إلى آخر، ومن قوم لقوم، ومن عهد لعهد آخر.

1_ دوافع دينية:

كان الناس يرتحلون لزيارة الأماكن المقدسة تلبية لنداء الرحمان وتوبة، وتطهيرا للنفس من دنس الذنوب، وعهد للسير على الصراط المستقيم وأملاً في المغفرة، ومعظم الرحلات تتجه من المغرب إلى المشرق بسبب وجود الأماكن المقدسة فيه وكثرة العلماء، ومركز الخلافة فيه.

2- دوافع علمية أو تعلمية:

إن طلبة العلم يريدون أن يرحلوا لغرض الاستزادة من العلم في منطقة أخرى من العالم، في مجالات مختلفة، كالفقه والطب والهندسة والعمارة، وغيرها، ونجد في كتب الحديث والسير، أن من الفقهاء والعلماء من كان يقطع القفار ويعبر الأنهار طلبا لحديث نبوي سمع به أو لمجرد التحقق من كلمة فيه، وقد فعل ذلك عبد الله بن عباس، والإمام الغزالي وغير ذلك من العلماء، وهكذا رحلات البحوث العلمية والكشوف الجغرافية.[1]

كالوفود والسفارات التي يبعث بها الملوك والحكام الملوك وحكام الدول لأخرى لتبادل الرأي وتوطيد العلاقات أو لمناقشة شؤون الحرب والسلام أو تمهيد لفتح أو غزو.

[1]– نفس المرجع.

3- دوافع سياحية وثقافية:

الإنسان يحب التنقل وتغيير الهواء والمناظر ومعرفة من خلف الطبيعة والبشر، واكتساب الخبرة بالمسالك والطبائع، وقد تكون للتعرف على المعالم الشهيرة كالآثار والمنارات والأبراج والعجائب.[1]

4- دوافع صحية:

كالسفر للعلاج أو الاستشفاء أو إراحة النفس من ألوان العناء وتخليصها من الكدر، كالارتحال إلى المناطق الريفية ونحوها، وقد يكون هربا من وباء أو طاعون.[2]

الرحلة في القرآن الكريم:

لم يدع الإسلام وسيلة من الوسائل التي تفيد الإنسان إلا و حثه على فعلها ومنها الرحلة سواء أكانت الرحلة للعلم أو الهجرة بالدنيا من أرض الشرك إلى أرض الإسلام أو الحج أو التجارة .

وفي بداية الحديث عن الرحلة لابد من النظر إلى أولى الرحلات الثابتة لدينا والمنتقاة من أوثق وأصدق مصادرنا الإسلامية هو القرآن الكريم فقد حفل القرآن الكريم بالأمثلة العديدة لكل نوع منها على الرغم من عدم ورود لفظ الرحلة إلا مرة واحدة في سورة قريش:" لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۢ٤.[3]

وقد تحدث في سورة قرش كلها عن الرحلة وهي رحلة قريش تجارية. فكما هو معلوم أن أهل مكة المكرمة اتجهت أنظارهم إلى التجارة بحكم موقع مكة.

---

[1]– المرجع نفسه.

[2]– المرجع نفسه.

[3]– سورة قريش، رقم الآيات 1–4.

لقد حرص العرب على إقامة هذه الأسواق سنويا وتميزت بتنافس الشعراء في إظهار عبقريتهم الشعرية، إلى جانب استغلال هذه الأسواق أيضا لتبادل السلع التجارية المختلفة، والترويج للأفكار والديانات الجديدة، فقد عرض الرسول صل الله عليه وسلم نفسه على العرب. كان رسول الله صل عليه وسلم يعرض نفسه على الناس في المواسم، فيقول: "ألا رجل يحملني إلى قومه فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي".[1]

والانتقال سعيا وراء العشب والماء لأنهما قوام حياة العربي في ذلك الوقت، وهذه الرحلات الثلاث داخلية يقومون بها سنويا وبانتظام داخل بلادهم.

ولقد لفت القرآن الكريم الانتباه إلى فوائد وأنواع الرحلات ويمكن إدماجها في الآتي:

1- الرحلة فرار بالدنيا من أرض الشرك إلى أرض السلام، وأشهرها هجرة المسلمين الأولى والثانية إلى الحبشة، ثم هجرة الرسول صل الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، قال الله عز وجل: "وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٠٠".[2]

2- رحلة الحج، قال تعالى: "وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢٧".[3]

فالدعوة إلى حج بيت الله الحرام قديمة منذ أيام إبراهيم خليل الله عليه السلام. ولما جاء الإسلام ألزمهم به مرة في العمر للقادر على ذلك، قال تعالى:"فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ

[1]– سنن ابن ماجة، ج1، ص 73.

[2]– سورة النساء، رقم الآية 100.

[3]– سورة الحج، رقم الآية 27.

كَانَ ءَامِنًاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ٩٧".[1]

3- الرحلة للتجارة: لقد مهر العرب في التجارة، وإن كان ذلك داخل نطاق محدود في الجاهلية، فهم يرحلون رحلتين في الصيف والشتاء إلى الشام واليمن، ولكن بعد الإسلام اتسع نطاق تجارتهم تبعا لاتساع دولتهم، بل لقد تعداه إلى أماكن لم يصلها غيرهم ولم يكتفوا برًا، بل ركبوا البحر أيضا خاصة بعد أن وجه الله تعالى انظارهم لذلك. قال تعالى: "رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا٦٦".[2]

[1]– سورة آل عمران، رقم الآية 97.

[2]– سورة الإسراء، رقم الآية 66.

الفصل الأول

مفهوم الرحلة العلمية

إن الرحلة تتعدد وتتنوع بعدد الأغراض والمقاصد مثلما قال شوقي ضيف :" أما الرحلات في الأمم والبلدان عن طريق البر وفي القوافل فهي كثيرة مفرطة، وهي أيضا متنوعة"[1]، وتعد الرحلة العلمية من الرحلات المشهورة والشائعة، إذا كما سبق وأن ذكرنا أن طالب العلم خاصة في المغرب إذا أكمل تعليمه[2]، سافر واغترب من أجل لقاء أهل العلم والمشايخ للأخذ منهم والاستفادة من عملهم، فكانت رحلاتهم بغية الاستكشاف والدراسة ولقاء العلماء والتنقيب والبحث والقراءة[3]، ونجد من حقق هنا النوع من الرحلات، ما جاء به القرآن الكريم في رحلة نبي الله موسى عليه السلام بأمر منه جل جلاله، كما حثّ ديننا الحنيف على هذا النوع من الرحلة، إذ قال تعالى :﴿۞وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ١٢٢﴾.[4]

[1]– شوقي ضيف، الرحلات، ط4، دار المعارف، 1119، كورنيش النيل القاهرة، ج، م، ع، ص 5–6.

[2]– حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، د.ط، سلسلة عالم المعرفة رقم 138، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، 1989، ص 11.

[3]– بتصرف، المرجع نفسه، ص 11.

[4]– سورة التوبة، الآية 122.

المبحث الأول: مفهوم الرحلة العلمية لغة واصطلاحا

أ/ مفهوم الرحلة العلمية: كما جاء في قاموس لسان العرب لابن منظور.

- الرحلة لغة:

رِحْلَةَ: مصدر رَحَلَ الرَحلةُ ما يرتحل إليه.

- اصطلاحا:

الترحال والارتحال: الانتقال وهو الرّحلة والرُّحلة، والرحلة: اسم للارتحال والمسير.[1]

أما معنى العلمية في معجم لسان العرب

لغة:

عَلَمَهُ، عِلْماً عَرَفَهُ و عَلَمَ هو في نفسه، ورجل عالم وعَليمُ. العُلمَةُ والعَلَمَةُ واَلعَلَمُ: شَقُ في الشَفَةِ العُلْيِ... .

اصطلاحا:

هي بعض نظريات وحقائق ومعلومات ووقائع حقيقية عن شيء محدد، وأيضا هو جميع مناهج البحوث العلمية والكتب، والمعايير التي نتبعها عندما نقوم بالحكم على الأشياء المحددة، وهو الكثير من مبادئ نظريات العلوم المختلفة، وهو من يقوم بتفسير ظواهر وعلاقات موجودة حولنا، وهو ما جاء بها أنبياء ورسل الله سبحانه وتعالى من نصوص.[2]

وأخذت الرحلة العلمية تنمو وتنتشر طوال القرنين الثالث والرابع من الهجرة، ففي هذين القرنين كانت العلوم الدينية واللغوية والفلسفية قد تم تأسيسها، وصنف فيها على الابتداء، وأصبح

[1]– ابن منظور، لسان العرب، ط1، دار صادر، مادة رحل، بيروت، 1990، ص 279.

[2]– نفس المرجع، ص 279.

لها شيوخ متخصصون يمثلون مدارس فكرية ومذاهب تعليمية، ومن ثم كانت تشد إليهم الرحالة في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية.

ومع تكاثر العلماء والمجالس التعليمية ورواج المخطوطات في معظم الديار الإسلامية، قل شأن الرحلة. يذكر المقري عن جده، نقلا عن الآباء أن التأليف نسخ الرحلة التي هي أصل جمع العلم، فكان الرجل ينفق فيها المال الكثير، وقد لا يحصل من العلم إلا القدر اليسير، لأن عنايته على قدر مشقته في طلبه، ثم صار يشتري أكبر ديوان بأبخس ثمن، فلا يقع منه أكثر من موقع ما عوض عنه، فلم يزل الأمل كذلك حتى نسى الأقل بالآخر، وأفضى الأمر إلى ما يسخر منه الساخر.

وما يؤكد ذلك ابن منده، م/395 هـ، كان رحالة مشهورًا، طاف كما يقول الشرق والغرب مرتين، ويؤرخ له كواحد من الأعلام الذين أنهوا عصور الرحلة، فقد كان "كان ختام الرّحالين".

وأراد أبو العلاء الهمداني، م529 هـ، لمّا قلّت رغبة الخلف في تحصيل العلم والرحلة ولقاء الشيوخ إحياء هذه "السنة المندثرة"، ولكن لم يواته الأجل.

ومع ذلك فإن عبارات مثل إنهاء عصور الرحلة، وختام الرحالين وإحياء السنة المندثرة دالة على حقائق مطلقة وعامة، فالاندثار لم يكن عامًا، وإنما كان اندثارًا أو انحسار نسبيا إذا قورنت الرحلة بما كانت عليه من قبل في القرون السابقة، وإلا فإن الرحلة عرفت طوال العصور علماء أجلاّء يرحل إليهم، وطلاب فضلاء يقدمون بالرحلة.[1]

[1]– محمود قمبر أستاذ ورئيس قسم أصول التربية بجامعة قطر، د.ط، الرحلة العلمية وقيمتها التربوية، ص 150.

وظلّت الرحلة مشهودة، ويقوم بها الكثيرون في العصور المتأخرة ولقد أرخ "الشوكاني" في البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ونجم الدين الغربي في الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة لكثير من هؤلاء الرحالة.[1]

ب/ الرحلة العلمية بحث واستكشاف:

تقوم التحركات البشرية، جماعات أو فرادى، على دوافع ومحفزات تثير في الفرد الرغبة في التنقل، على الرغم مما يرافق العملية من انقطاع عن الجماعة التي نشأ بها. يعد الدافع الديني، الاعتقادي، أهم هذه العوامل؛ هذا الحكم مرتبطا أساسا بالرحلات الاختيارية. فقد أسس "ابن حمادوش" مسار رحلته حول تيارات ذات طابع ديني تدور ضمن محطاتها الأساسية مزارات للأقطاب الصوفية التي تشكل كمًّا معتبرًا من ما تم استطراداته، وقد أورد "تودوروف" في معرض حديثه عن "كريستوف كارلوميس" أن المستكشف كان عميق الشعور بالقيم المسيحية "انتصار المسيحية العالمي. ذلك هو الدافع الذي يحرك كولومبس وهو رجل متدين عميق التدين...الذي يعتبر نفسه لهذا السبب عينة مختارة، مكلفًا برسالة سماوية...".

تقدم النصوص الرحلية كمًّا هائلا من المعارف والمعلومات، سواء ما تعلم منها العلوم الجغرافيا الوصفية أو بطبائع الشعوب وعاداتها ومعاملاتها.[2]

يمكننا اعتبار الأعمال التي يمارسها الرحالة مهام فرعية في إطار قالب عام ذي هدف محدد، بل هي تعتبر سببًا ووسيلة لتحقيق هذا الهدف، نجد من الأهداف التي قد ترتبط بقيمة سامية، ربما تسهم في إيجاد تفسير لظاهرة السعي والبحث في مجاهل الأرض.

---

[1]– المرجع السابق، ص 151.

[2]– أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه العلوم " تخصص الأدب العربي"، المسعود جوّادي، الرؤية المركزية دراسة مقارنة في أنساق الخطابات الرحلية العربية والغربية، ص 33.

ج/ قيمة الرحلة العلمية:

لا ريب أن الحاجة العلمية هي الدافع للقيام بمثل هذه الرحلات ومن بينها رحلة "عبد الرزاق ابن حمادوش" الذي عاش في القرن الثاني عشر(12)، حققها الأستاذ "أبو قاسم سعدّ الله"، وعن قيمتها يقول أنها تحفل بالمعلومات عن عصره سياسيًا وفكريًا واجتماعيًا وعن معاصريه: وأفكارهم، وأخلاقهم، ونظمهم وأذواقهم...، كونها نادرة من نوعها.

وفي رأينا هي قيمة سياسية لها قيمة بالغة سياسيا وفكريا وعلميا.

د- قيمة الرحلة:

في نظر "أبو القاسم سعد الله"لرحلة "ابن حمادوش" قيمة عظمى لذلك أقدم على تحقيقها، وهي تكمن في كونها:

1- جزءًا من تراث الجزائر العربي الإسلامي كتب في العهد العثماني الذي تميز بالركود والجمود والانحطاط والتخلف.

2- تحفل بالمعلومات عن عصره سياسيًا وفكريًا واجتماعيًا، ومن معاصريه: أفكارهم، وأخلاقهم، ونظمهم وأذواقهم.

3- مصدر هام لحياة المؤلف نفسهن بعد أن ضاعت مؤلفاته الأخرى، فهي مرآة حياته ونشاطه وتفكيره، رغم أنها غير كاملة.

4- تضم وثائق لا غنى عنها للباحثين في التاريخ الاجتماعي والأدبي والديني.

5- نادرة في نوعها، وهو فن الرحلة، إذ لم يبق لنا الزمن سوى عدد ضئيل جدًا من الرحلات الجزائرية التي تعود إلى العهد العثماني.

وإذا كانت هذه هي في نظرنا إيجابيات رحلة حمادوش، فإن لها أيضًا سلبياتها فهي:

1- تفتقر إلى وحدة الموضوع والترابط العضوي، فهي كشكول، فيه خليط من الحوادث والأفكار، النقول، والمذكرات، ...إلخ.

2- مليئة بالاستطراد الثقيل.

3- لا تدل على أن القدرة العقلية للمؤلف كانت دائما فوق النقد، إن كثيرا من النصوص الواردة في الرحلة، ولاسيما اختياراته التي يبدو أنه يقصد بها الترويح على القارئ، تنضح بالخرافة والتخلف العقلي ولا نعتقد أن شبيبة اليوم المتسلحة بالعلم ستستصيغ بعض اختيارات ابن حمادوش وذوقه.

ويكفي هنا التنبيه على ذلك فقط، ذلك أن "ابن حمادوش" رغم عقلانيته النسبية، كان يمثل عصره وأذواق معاصريه، وعلى الشباب العربي المسلم أن يتعلم من أخطاء الأوائل وضعفهم، فلا يقع هو في نفس الخطأ والضعف.[1]

وما أحوجنا إلى المصلحين النقاد الذين يحولون سلبيات الماضي إلى إيجابيات تخدم الحاضر والمستقبل.

بالإضافة إلى قراءة المؤلف لمقامات الحريري وغيرها "وفي يوم الثلاثاء ختمت المقامات الحريرية التي كنت ابتدأتها في تطوان في بيتي، قرأت هناك سبع مقامات وأكملت الباقي هنا...".

كان "ابن حمادوش" من الرّحالة المطّلعين على مؤلفات أدبية مختلفة وبذلك كان واسع الثقافة والأدب.

[1]– أبو قاسم سعد الله، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، سنة 1983، ص 23.

تمتاز الرّحلة بروحها العلمية فـ"ابن حمادوش" كما لاحظنا كان كثير الاهتمام بالمسائل العلمية "وفي ليلة الثلاثاء الثامن يناير ختمت المقالة الثالثة من إقليدس..."، اهتم كثيرًا بالمسائل العلمية ذات الطابع العلمي في دقة الوصف والتصور.

بالإضافة إلى كتابه الجوهر المكنون في الطب "وفي يوم الإثنين أول يوم من ذي الحجة ابتدأت تأليف الجوهر المكنون من بحر القانون، تأليف حسن في الطبّ"، كانت لـ"اِبن حمادوش" تآليف متنوعة ومختلفة منها ما يتعلق ومختلف العلوم الأخرى التي نبَغ فيها وبيّن قدرته على الإلمام بكلّ الجوانب سواء العلمية أو الأدبية.[1]

ويمكن أن نحدد قيمتين أساسيتين لأدب الرّحلة وهما القيمة العلمية والقيمة الأدبية.

1/القيمة العلمية:

تتجلى هذه القيمة في المعلومات التي تقدمها في مختلف الاختصاصات التاريخية والجغرافية والإِقتصادية والاجتماعية، من وصف للمسالك والعمران ونمط المعيشة من عادات وتقاليد ليكون أدب الرحلة بمثابة مدونة يلجأ إليها الكثير من الدارسين لإستخلاص العديد من المعارف بكل اطمئنان وارتياحيه، ففي مجال التاريخ مثلا تقدم الرّحلات معلومات لم يقدمها لنا العلم المختص في هذا المجال، فهي تنقل ذلك الاختصاص بواقعية وبكيفية حية، فإذا كان التاريخ يعمل على وصف واستقصاء حياة البلدان وتاريخها بمختلف مظاهرها (السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية والثقافية).

[1]– أبو قاسم سعد الله، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، سنة 1983، ص 24.

فإن الرّحلات أعطت كل ذلك بُعده المناسب وتطرّقت إلى تحليل جوانب لم تتطرق إلى تحليلها الوثائق التاريخية، فقامت الرّحلات بوضع كل ذلك في دائرة الإشعاع التي توجه إليها لاستجلاء الواقع وإخراج التاريخ حدوده الضيقة.[1]

وإذا أمعنا النظر في مؤلفات أدب الرّحلة العربي نجد أن القيمة العلمية تتجلّى بشكل واضح كما هو الحال في رحلات المقدسي والبيروني إذ لم يكن هدفهم الرئيس الرحلة في حدّ ذاتها قدر اهتمامهم بوضع مؤلف في تقويم البلدان كما فعل المقدسي مثلا وصف حضارة غير إسلامية كما جاء في دراسة البيروني للثقافة الهندية، إننا نرى في هذه الأعمال وما قدّمته من مادة ثرية دليلا بارز على قيمة رحلاتهم وتزويدهم مباشرة بالمعلومات المستمدة من الملاحظة المباشرة والمعاينة الشخصية عن الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية للبلدان التي زاروها أو أقاموا فيها.[2]

إن هذه القيمة العلمية التي ميّزت أدب الرحلة مرجعها أن أصحابها شهود عيان لمختلف الأحوال والأوضاع، وإن كان بعض الدارسين قد تفطنوا إلى بعض الأخطاء خاصة من الناحية التاريخية إلا أن هذا لا يقلل من أهميتها ولعلّ خير دليل على ذلك هو ازدياد الاهتمام بهذا الفن فهو بذلك يعكس لنا ما وصلوا إليه من علم غزير، وسعة فهم مع حرصهم على تدوين ملاحظاتهم أولاً بأولٍ ومن لم يتسن له ذلك قام بتدوين رحلته عقب عودته إلى بلاده والتزامه جانب الدّقة وقوّة الملاحظة في

[1]– عبد الله كرّوم، الرّحلات بإقليم توات، دراسة تاريخية وأدبية للمخطوطات بخزائن توات، دار النشر، دحلب، د.ط، 2007، ص 89.

[2]– ينظر نوال عبد الرحمان الشوابكة، أدب الرحلة الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2008، ص 52.

كل صغيرة وكبيرة، وأهم ميزة لهؤلاء الرّحالة هي تميزهم بالدقة في تدوين الملاحظات واختيار الأسلوب الممتع وذكر التفاصيل المهمة جدًّا.[1]

ولأن الرّحالة وهو يسرد لنا رحلته من خلال تنقلاته ومشاهداته في ترتيب زمني دقيق، فهو في الحقيقة يقدّم لنا جانبا مهما من حياته، فتكون بذلك عنصرًا حاضرًا في الرّحلة بصورة ثانوية أو صورة محورية فهي تطلعنا على سير أصحابها، وعلى حقيقتهم وتكشف عن مواهبهم ودوافعهم للقيام بتلك الرّحلات، والأثر الذي خلّفوه للأجيال.[2]

أصبح هذا العنصر في أدب الرحلة جزءًا أصلاً من حياتهم العلمية من أجل اتساع ثقافتهم وتمكّنهم من الجوانب العلمية وتطبيقهم وعلمهم بما علموا ليصبحوا بذلك عالمين كما أخبر بذلك "اِبن خلدون".

إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في تعليم وهذا ما استخلاصناه من هذه الدراسة .[3]

[1]– ينظر عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية: مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين 7 و8هـ، دراسة تحليلية مقارنة، مكتبة فهد الوطنية، الرياض، د.ط، 1996، ص 88.

[2]– ينظر، نوال عبد الرحمان الشوابكة، المرجع السابق، ص244.

[3]– عبد الله عثمان الياقوت، أدب الرحلة الحجازية عند الأندلس من القرن السادس حتى سقوط غرناطة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، د.ط، 2001، ص 84.

2- القيمة الأدبية:

إذا كان أدب الرحلة فنا أدبيًا يحمل فائدة للمؤرخ والجغرافي وعالم الاجتماع... فإنه يحفل كذلك بكثير من الأساطير والخرفات وبعض المحسنات البلاغية، وجمال اللّفظ وحسن التعبير وارتقاء الوصف وبلوغه حدا كبيرًا في الدّقة علاوة على ما يستعين به أحيانًا من أسلوب قصصي وهذا هو الذي يجعل بعض الدارسين يدخلون أدبيات الرّحلات ضمن فنون الأدب العربي.[1]

ومعنى هذا أن أدب الرّحلة تتجلى أبيّته في عدّة مواضيع، وذلك من خلال تلك الرَوائع الأدبية والأساليب الفنية التي تقدم فيها موادها لترتفع بها إلى علم الأدب وترق بها إلى مستوى الخيال الفني.[2]

فالرّحالة بعد أن يستقصي جوانب المظهر الحسي يقيم علاقة تشابه بينها وبين المحسوسات، مما يجعل القارئ يحس وكأنه رّحالة مثله، يشاهد كل ذلك بعينه، ولعلّ هذا ما ما دفع بـ"شوقي ضيف" إلى عدْ أدب الرّحلة نتيجة لما تتسم به "خير ردّ على التهمة التي طالما اتهم بها الأدب العربي ونقصد تهمه قصوره في فن القصة".[3]

إن القول بأنّ أدب الرّحلة فن يقترب من فن القصة راجع بالدرجة الأولى إلى طبيعة بعض الرّحالة، هؤلاء الذين نجحوا في سرد القصص التي عاشوها أو سمعوا عنها، وكان سردهم لهذه القصص بعفوية وحيوية، قرّبت الرحلة إلى عالم القصة.

[1]– ينظر، سيد حامد النساج، المرجع السابق، ص 08.

[2]– ينظر، المرجع السابق، ص 244.

[3]– المرجع السابق، ص 84.

وإلى جانب السّرد نجد حضور الوصف الدّقيق والبارع في معظم الرّحالات هذا الذي قرّب أدب الرّحالة إلى أسلوب القاص، كون جوهر الرّحلة هو وصف السّفر من موضع إلى آخر...، وما تقع أبصار المسافر من مشاهدات وما يتطرّق إليه من أخبار.

على هذا الأساس يمكن القول إن أدب الرّحلة يحمل قيمتين أساسيتين علمية وأدبية، لأن الرّحالة ينطلق من الواقع، وبما أن هذه الأحداث سيكون لها حتما تأثيرا على نفسية الرّحالة ومشاعره، فإن هذا يدفع بالرّحالة إلى المزج بخياله الخص الخلاّق، فيخرج لنا تركيبًا رائعًا تتحدد فيه روحه بالعالم وتضفي عليه حياة جيّاشة بفضل ذاتيتها المتحققة عاطفتها الفياضة، ويجنح الرّحالة أحيانا نحو الخيال في سرد رحلته حتى يثير الشوق والحيوية لدى القارئ من جهة ويدفع عنه الرّتابة والملل من جهة أخرى.[1]

وفي نظر نوال يمكن القول:" إن أدب الرّحلة يشكل جنسا أدبيا يصور فيه الرّحالة ما شاهدوه وما جرى لهم من أحداث ووقائع وما صادفهم من أمور أثناء رحلاتهم وحياتهم اليومية فكانت بذلك كتب الرّحلات من أهم وأوثق المصادر التاريخية والجغرافية والاجتماعية.[2]

ومن الرّحالة العرب الذين كانت لهم رحلات مميزة والتي تميزت بطابع أدبي سردي قصصي ذكرنا على سبيل المثال: "الرّحالة اِبن بطوطة، ابن جبير، المسعودي."

فهؤلاء الرّحالة استقوا رحلاتهم ومعلوماتهم من المشاهدة الحيّة والتصوير المباشر، فكان أدب الرّحلة فنًّا يجمع بين المتعة والفائدة.

[1]– ينظر، المرجع السابق، ص 118.

[2]– ينظر، نوال عبد الرحمان الشوابكة، المرجع السابق، ص 53.

ولأن الرّحالة ينقلون من خلال رحلاتهم كل ما سمعوه، وما وقعت عليه أبصارهم فأصبح هذا الأدب سجلاً أدبيًّا حقيقيًّا لمختلف المعلومات والمعارف.

فقد جمعت الرّحلة بين السّرد والوصف وكأنها رواية أو قصة طويلة لكن تبقى في آخر المطاف مجرّد رّحلة شيّقة لمؤلفين صمدوا ودونوا المعلومات بدّقة وموضوعية وبكل وضوح.

ومن خلال الرحلة يبدو لنا أنّ "اِبن حمادوش" كان يتبع المبادئ الأساسية في البحث العلمي، إذ نجده يعتمد على الملاحظة والتجربة، ويهمنا هنا أن نشير إلى أن الملاحظة "وسيلة أساسية من وسائل البحث العلميّ، أما التجربة فتعتبر نتائجها، أكثر صدقًا من الملاحظة، لذلك يختبر صدق العلاقة التي لُوحظت بتجربة إن أمكن، فإذا حصلنا على نتائج موحدة المرة تلوى المرة يصبح ما حصلنا عليه حقيقة علمية".

الفصل الثاني

ابن حمادوش و عصره

أولا: ابن حمادوش وعصره

عاش ابن حمادوش "عبد الرزاق محمد بن محمد المعروف بإبن حمادوش الجزائري، خلال القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي)، فقد ولد في مدينة الجزائر سنة (1107هـ-1695م) وتوفى بعد حوالي تسعين سنة وكانت أسرته فيما يبدو تمتهن الدباغة"[1] لأنه وصف والده وعمه في بعض العقود موصوفين بكلمة "الدباغ".

فقد ابن حمادوش والده وهو صغير، فكفله عمه الذي زوجه ابنته وأسكنه منزله ومع ذلك فإن ابن حمادوش لم يتحدث عن هذا الزواج كثيرا وإنما أكثر الشكوى من زواجه الثاني الذي كان سيء الحظ فيه، وبقيت حرفة التجارة ملتصقة به إلا أن صاحب الرحلة عاش فقيرا بسبب اهتمامه الشديد بالعلم وإهماله للتجارة.

درس ابن حمادوش على طريقة عصره، فتلقى مبادئ علوم الدين واللغة بعد أن حفظ القرآن الكريم على عادة أبناء بلده ولكن مرحلة تعلمه الأولى لا تزال مجهولة... غير أنه يمكننا إستنتاج ذلك من مستوى ثقافته كما يظهر في مؤلفاته التي وصلت إلينا ومن ذلك إشارات ذكرها بنفسه حين تحدث عائلته وجيله من الأدباء والفقهاء.[2]

يبدو أن ابن حمادوش كان يقرأ الكتب المعربة، أو يقرأ ما يسميه بكتب النصارى، ويعجب بما فيها ولكنه حذر، مع ذلك مما يتعلق فيها بالدين والعقائد.

[1]– بن حمادوش الجزائري: لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ج2، تحقيق الدكتور أبو القاسم سعد الله، د.ط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983، ص 09.

[2]– أبو القاسم سعد الله، موسوعة أعلام العلماء العرب والمسلمين، ص 206.

فرغم أنه نقل عن كتاب الدول للملطي، تراجم عدد من العلماء المسلمين وغيرهم من أمثال محمد البتاني، ومحمد الرازي، وابن سينا، الفرابي، والبيروني نجده يعلق عليه يقول :"هو كتاب عجيب التأليف حسن الصنيع، لولا أنه محشو كفرًا نزل فيه الأقدام، فيجب التحذير منه".

كان يكتب يومياته ويسجل ملاحظاته ومشاهداته، ويذكر من لقيهم من العلماء والأدباء سواء الذين قصدهم أم الذين سمع عنهم، كما كان يسعى جاهدا للاتصال بهم وللأخذ عنهم وللاستفادة من تجارتهم وخبراتهم.[1]

ولقد كان ابن حمادوش شديد الاهتمام بملازمة العلماء كي يأخذ منهم ويقرأ عليهم ولذلك نجد صاحب الرحلة كان كثير التنقل والترحال في عواصم المدن والعالم الإسلامي العربي كتطوان وفاس ومكناس، وتونس.

عاش ابن حمادوش في القرن الثاني عشر الهجري (18 م) ولقد عرف هذا القرن تحولات كثيرة داخل الجزائر وخارجها، وكان ابن حمادوش من مشاهديها ومن مسجلي آثارها.[2]

فعلى الصعيد الثاني نستطيع القول بأن عصره تميز بشيء من الانتعاش الثقافي ففي القرن عشر الهجري عرفت الجزائر أسماء لامعة في الإنتاج الأدبي والفقهي والتاريخي والعلمي.

فالقرن الثاني عشر هجري–إذن-شهد نشاطا معتبرًا في مختلف الفنون والعلوم "هو نشاط عكسته نماذج معتبرة بمادتها ورجالها وقضاياها"[3]. ولكن لا يمكننا القول بأن الجزائر على عهد ابن

[1]– بالتصرف: أبو القاسم سعد الله، موسوعة أعلام العلماء العرب والمسلمين، م.س، ص 207.

[2]– أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته آثاره، ط2، دار العرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص 13.

[3]– عمر بن قنية، في الأدب الجزائري الحديث، م.س، ص 98.

حمادوش كانت تشهد نهضة أو ازدهار ثقافيا ذلك أن معظم علمائها كانوا ما يزالون عالة على المعاهد الإسلامية في فاس وتونس والقاهرة.

ثانيا: مصادره الثقافية

ويمكن تقسيم مطالعته الأربعة أصناف وهي العلوم الشرعية والتاريخ والأدب والعلوم المحضة والمنطق، ويدخل في الصنف الأول التفسير والحديث والأسانيد وكتب الفقه. ومع ذلك كتب الحديث السنة وخصوصًا صحيح البخاري الذي ختمه عدة مرات بالجامع الكبير بالعاصمة أو في دار شيخه ابن ميمون.[1]

أما في الأدب قرأ مجموعة منها كتاب أنس العشيق الذي لم يذكر مؤلفاته وكتاب لابن الخطيب ذكر له عنوانًا غير واضح (حضرة الارتياح؟)، وكتاب كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ في أوصاف بني آدم وشيات إبراهيم الأجدابي. وكتاب الدر الفائق في المواعظ والرقائق. وكذلك قرأ ابن حمادوش مقامات الحريري الذي اشتراه ونسخه في المغرب ودرسه.

ويذكر ابن حمادوش مجموعة من المؤلفات في العلوم تدل اهتمامه الخاص بهذا الفرع من فروع المعرفة. فقد درس القلصادي وشرح السنوسي على الحباك والقانون والنجاح لابن سينا وشرح ابن رشد على منظومة ابن سينا ومقالات اقليدس وكتاب تاريخ الدول للملطي في أخبار العلماء والأطباء. قد نقل من هذا الكتاب في الرحلة وأعجب بصاحبه، ثم كتاب روضة الأزهار للجادري وشروحها وكتاب السطى على ذوات الأسماء والمنفصلات.

ومن جهة أخرى طالع عدة كتب في المنطق والتصرف ونحوهما.

[1]– أو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش، حياته وآثاره، ص28.

ثالثا:مضمون الرحلة

واعتمادا على ما سبق يمكن القول: إن الرحلة تعتبر عماد التلاقي والاتصال وأساس المعرفة والإطلاع . فهي تساعد على تنمية المعارف وتطويرها وتساهم في تهذيب النفوس وتقويم الطباع لذلك تعتبر الرحلة "أكثر المدارس تثقيفا للإنسان".[1]

إن أهم ما يلفت النظر في دراستنا لابن حمادوش هو اهتمامه العلمي، وشدة ملاحظته على ما حوله من الطبيعة والناس، إذ نجده في رحلته إلى المغرب" يسجل ملاحظاته العلمية ويؤلف الرسائل، ويناقش المسائل التي لم تكن تشغل عقول جيله من المتعلمين".[2]

فرغم ظروف العصر الذي تميز بنوع من الركود وبسبب "هبوط في مستوى التعليم وجهل الحكام وانغلاق باب الاجتهاد والاعتماد على النقل وحده"[3]، حيث نجد ابن حمادوش مثلا "يشتغل بالعلوم كالطب والفلك والحساب والهندسة وغيرها وبجانب خط علماء عصره."

فلقد وصف ابن حمادوش نفسه سنة 1945هـ بأنه عشّاب وصيدلاني وطبيب ولم يكن عمره عندئذ سوى ثمان وثلاثين سنة، حيث قام بعدة أبحاث وتجارب ختمها في الرحلة يقول "فاليوم الحمد لله أنا عشّاب وصيدلاني وطبيب في بعض الأمراض."[4]

كان ابن حمادوش يكثر من المطالعة في الكتب الطبية والهندسية ودراسة الفلك والأعشاب والحساب والظواهر الطبيعية. من خلال الرحلة يبدو لنا أن ابن حمادوش كان يتتبع المبادئ الأساسية في البحث العلمي.

---

[1]– حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، د.ط، عالم المعرفة، الكويت، 1989، ص 25.

[2]– أبو القاسم سعد الله، موسوعة أعلام العلماء العرب والمسلمين، م.س، ص 07.

[3]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500–1830)، ج1، م.س، ص 449.

[4]– أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته آثاره، ط.خ، ص من 291 إلى ص 295.

ففي سفره (ابن حمادوش) من تطوان إلى فاس والعودة سجل ملاحظاته على أنواع المياه التي مر بها. والطيور التي شاهدها والأشجار التي تأملها وكان يذكر خصائص كل نوع ويقارن ذلك في بلاده من نفس النوع وما يشد عنه وقد قال عن شجر الدلم مثلا أنه في المغرب طويل جدّا وأن " ورقته أكبر من ورق الدردار وصفه بين ورق البلوط وورق الدردار، وله ثمرتان إحداهما عفص كبير من العفص التركي والأخرى بلوط يؤكل."

وفي مدينة تطوان لاحظ " النجم ذا الشعاع مائلا إلى الجنوب وشعاعه خيوط كالنيران المحرقة يزيد طوله على ذراعين ممتدا لعين المشرق"، وسواء أكان في الجزائر أو خارجها، فإن ابن حمادوش كان لا ينفك عن قراءة كتب الطب والتقاط ودراسة الأعشاب والتوصل إلى منافعها والتأليف فيها أيضا وتركيب المعاجين المناسبة منها للتداوي بها.ومن ثمة كان صادقا حين وصف نفسه بالعشّاب والصيدلاني الطبيب. كما قام بصنع مادة (باذرهر) في مصر أثناء حجه الأول.

كان هو من الأوائل في المغرب مهتما أيضا بدراسة النباتات والأشجار. وقد ذكر في الرحلة أنه كان يخرج بعد عودته إلى الجزائر مع بعض العشابين ويقطعون بعض النباتات من جبل بومعزة. وفي مناسبة أخرى ذكر أنه خرج مع السيد محمد كنجل، وكان عشّابا ليتعلم منه صناعة الأعشاب[1]، وبعد أن تعلم منه ذلك، حمد الله قال "إن الأعشاب المقيدة في تأليفي كلها معروفة عندي"، ومن الأسف أنه لم يذكر عنوانًا لهذا التأليف.

والظاهر أنه يعني به الكتاب الرابع من تأليفه الذي سماه (الجوهر المكنون من بحر القانون) ويشهد (كشف الرموز) المطبوع على اهتمام ابن حمادوش وتمكنه من معرفة الأعشاب وخصائصها ومنافعها.

[1]– أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته آثاره، ط.خ، 2011، ص 36.

وكان ابن حمادوش كثير القراءة في كتب الطب القديمة عربية وأجنبية فبالإضافة إلى ابن سينا والأنطاكي وابن البيطار عثر على كتاب (تاريخ الدول) للملطي وأعجب به كثيرا.

وقد ألف ابن حمادوش كتابًا كبيرًا في الطب سماه (الجوهر المكنون في بحر القانون) وذكر أكثر من مرة أنه كان يُركّب المعاجين الطبية بنفسه.

ومن تجاربه العلمية ما لاحظه على أوزان المياه المختلفة، فقد رسم مجوفا من زجاج وضع فيه حبات دقيق من الرصاص ووزن فيه أنواع المياه المعتدلة[1] والخفيفة والثقيلة. ولاحظ أن ماء الحامة والتلاّملي في مدينة الجزائر من أعدل المياه لأنه أثقل من ماء البحر.

هذا نص عبارته " رأيت ميزان الماء من زجاج على هذه الصفة (ورسم ذلك) وماء البحر هو أخف المياه يصل منتهي المجوف، وتلك النقطة التي أسفله مثلما فيه من حب الرصاص الرقيق. فإذا كان أثقل منه غرق المجوف بقدر ثقله إما بدرجة أو بدرجتين أو أكثر. فماء الحامة وماء تالاملي أسماء مائين أعدل المياه عندنا بلغ إلى السادسة (أي من درجات المجوف المرسوم) فهو أثقل من ماء البحر بستة أدراج. وماء المطر و بعض الأبار أثقل منه بدرجة كان أثقل منه يغرق أكثر لأن حملة نقطة ثلاثة عشر. خمسة حمر والسادسة خضر، وفوقها ستة حمر والسابعة خضرا."[2]

-يظهر لنا- من خلال ما سبق ذكر أن صاحب الرحلة أسهم من خلال ملاحظاته هذه في تقديم معلومات وحقائق عن عذوبة المياه وأعدلها وأجودها. وبهذا نستطيع القول أن ابن حمادوش زودنا بحقائق علمية يمكن للباحث الاعتماد عليها.

[1]– أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته آثاره، ط.خ، 2011، ص 37.

[2]– بتصرف، نفس المرجع، ص 38.

بالإضافة إلى ما سبق ذكره عن مؤلف الرحلة نجده مهتما بما أسماه علم البونبة أو كنية رمي القنابل "وكان قد تعلم ذلك ذلك نظريا من الكتاب لعبد الرحمان الفاسي ولكنه أراد أن يتعلمه علميا أيضا"[1]، لم يكن ابن حمادوش –فيما يبدو- مهتما بعلم معين من العلوم بل كان يبحث في علوم كثيرة، ومن ذلك مثلا ما يسميه هو بعلم البلوط والذي عرفه بأنه معرفة الطرق البحرية وبعد ذلك أنه تمكن من الإلمام به حين قال :"أنا يدي قد صححت في هذا العلم".[2]

إلى جانب ذلك أيضا كان ابن حمادوش كثير القراءة في الكتب الأوربيين الذين يسميهم النصارى، ولكننا لا ندري بأية لغة كان يقرأها، والغالب أنها كانت بالعربي ومن ذلك استخراجه عمل الرخامة الظلية بالحساب من كتب النصارى كما قال. وقد ألف في ذلك أيضا. وفي مناسبة أخرى اشترى (القوس الذي يأخذ به النصارى الشمس)، وتعلمه أيضا، وقد عرّفه بقوله (هو آلة ذات قوسين يبصر ماسكها من خرمي هدفتيها الأفق الشمالي بالعين، بشرط أن يساتر بظل الهدفة الثالثة العليا شق الهدفة السفلى على الأفق مجتمعتين، فإذا ساتر كانت الدرجة في قوس والدقيقة في الآخر من القوسين".

فابن حمادوش لم يختص بعلم معين فهو كان كما وجدناه من خلال رحلته فقهيا ورياضيا وطبيا وصيدلانيا وفلكيا أي أنه كان ملما بعلوم كثيرة وهذا "مما يثير الإعجاب اليوم ويدهش علماء النفس والتربية خصوصًا المتطرفين في الدفاع عن ميدان التخصص في سن مبكر وهذا يعكس شخصية المؤلف العلمية.

[1]– أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته آثاره، ص 39.

[2]– محمد بن أحمد بن شقرون، مظاهر الثقافة الغربية، م.س، ص 193.

الفصل الثاني

دراسة في الموضوع والشكل

أولا: موضوعات الرحلة وقيمتها

أ- سبب تأليف الرحلة:

قد تكون هناك مجموعة من الأسباب التي أدت بـ"ابن حمادوش" إلى تأليف هذه الرحلة: ربما تكون الرحلة نفسها، أو رغبة داخلية تعتريه أو من أجل استظهار مقدرته على الكتابة.

بالنسبة للدافع الأول والمتمثل في الرحلة نفسها فلعلّ "ابن حمادوش" كتب في الرحلة من أجل الرحلة وفقط كونه يرتحل بإستمرار من أجل السفر والمتعة والتعرف على بلدان مختلفة بمختلف ثقافاتها وحضاراتها .

فهو عاش فترة طويلة حتى أن رحلته دامت أكثر من أربع سنوات فرحلته كانت ممتعة إلى درجة التشويق.

أما الدافع الثاني، قد يكون رغبة داخلية تعتريه بتسجيل الأحداث مع إبراز قدرته على سردها، فهي محشوة بأخبار وتعاليق واستطرادات مختلفة. كانت أول نقطة في المغرب "تطوان"، فيصف دخوله إلى تطوان "وصبيحة السبت بعد شوق الشمس، خرجنا من جبل طارق ألقينا مراسينا وألقى بعض أصحابها كانوا نزلوا في الفلوكة... فدخلت تطوان في أول السابعة وصلّيت الظهر بها جماعة، فلقيت من علمائها الشيخ أحمد الورزري فسلّمت عليه"[1]، ما لُوحظ من خلال كل هذا هو ذكر التفاصيل الدقيقة بكل حذافيرها دون إدخال عنصري الغموض والإبهام الذي يجعل القارئ لا يستوعب الرحلة أو بالأحرى لا يفهم أجزائها ومعانيها. فرحلة "اِبن حمادوش" كانت مفهومة وواضحة المعاني وذان معانٍ موحية توحي بالبساطة والإنسجام.

[1]– عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، ص 99.

أما الدافع الثالث هو استظهار "ابن حمادوش" لمقدرته على الكتابة وذلك بتسجيل يومياته وسردها، بكل موضوعية وحرّية مطلقة، وكان موقفه واضحا وبارزا تجاه ما يحدث وما يُشاهد، فلقاؤه بالعلماء جعله يدرس لهم ويحاول إبراز مقدرته على الكتابة مع أنه رحّالة منفرد عن البقية.

ب- موضوعاتها:

الموضوع الذي نتناوله بالدراسة هو موضوع الرحلة حيث نقوم بتحليلها لأنها فن من الفنون الأدبية النثرية، ولها دوافع وأسباب متعددة، كما أنها تختلف من شخص لآخر ومن قوم إلى قوم ومن عهد إلى عهد، ونجد أن للجزائريين اليد البطولي في كتابه الرحلات، لاسيما خلال القرن الثاني عشر هجري لكونها وسيلة هامة لإكتشاف العالم والإنسان وتوسيع معارفهم وخبراتهم، ومن دواعيها حب المعرفة والتعطش إلى الاطلاع والاغتراب، وتكمن أهميتها وقيمتها كفن وحركة وفعل إنساني.[1]

فالرحلة وسيلة لاكتشاف العالم والإنسان معًا وتوسيع المواهب وخبرات الرحالة ومعارفهم والوصول إلى كل ما هو جديد فقد كان "ابن حمادوش" من الرحالة الجزائريين في العهد العثماني، ومن خلال كتاباته صوّر لنا الواقع ووصف لنا الأشخاص والأحداث التي شهدها وقدم لنا ملخصًا للحياة الاجتماعية والثقافية والدينية والعلمية في ذلك الوقت، ما يؤكد ذلك تناوله لموضوعات متعددة كما في الرحلة التي نحن بصدد دراستها.[2]

[1]– خضر موسى محمد حمود، أدب الرحلات وأشهرها أعلام العرب ونتاجهم، ص19، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1991.

[2]– بالتصرف.

فمن الموضوعات المعالجة في هذه الرحلة تحدثه عن ذهابه من تطوان إلى فاس سجّل ملاحظاته على أنواع المياه التي مرّ بها والطيور التي شاهدها والأشجار التي تأملها، كان خصائص كل نوع ويقارن ذلك بما في بلاده من نفس النوع.[1]

وكان قد أصيب وهو بفاس بحمى نافص فاشترى (الكينكينة) واستعملها في فنجان قهوة وشربها على ثلاث مرات، ولاحظ على ذلك أنه لما شرب الثلث الأول بطل القض الأعرق في اليد اليمنى، وعندما شرب الثلث الثاني توقف النفض حتى في العرق المذكور، أما حين شرب الباقي فقد أحس بذهاب الحمى عنه تماما، غير أن جسمه ظل ثقيلا فنام ثم قام بعد ذلك سليما معافي.[2]

فنلاحظ أن "ابن حمادوش" دقيق جدا وهذه ميزة تميزه عن باقي الرحالة العرب وهي سمة تجعله منفردًا عن الآخرين، كما أنه يعتمد كثيرًا على التسلسل التاريخي، وذكر الوقت بالضبط، فدقته جعلت من رحلته رحلة زمنية وكأنه بداخل كبسولة الزمن.

كما دارت موضوعاته حول العادات الجزائرية والتي هي جملة من العادات الاجتماعية الشائعة آنذاك منها ذكر الصلاة المعهودة عند ختم صحيح البخاري، ورش الخدم لماء الورد على الناس بالجامع الكبير، كما وصف عادة أهل الجزائر في ليلة القدر في عدة مناسبات.

أما عن تأليفه في الفلك ذكر مجموعة من التواريخ التي تعلمها "وفي يوم الجمعة سادسا وعشرين ذي القعدة اِبتدأت تأليفًا في علم الفلك، جمعت فيه غريب ما أتعلم، فمنها سبعة تواريخ فيه تعلمتها وهي العزل المسيحي والإسكندري وزدت فيه الفارسي والملكلي والقبطي والعبري."[3]

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، (الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري –حياته، آثاره–) ، ط.خ، 2011، ص 35.

[2]– نفس المرجع، ص 36.

*كينة: ثمر شجر السدر، (معجم الزائد) (كينة).

[3]– أبو القاسم سعد الله، (الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري)، المصدر السابق، ص 40.

ركز الرحالة على التواريخ والسنوات وضبطها بدقة ووضوح فرحلته ككل ترجمت قدرته على الإحاطة بالموضوعات المهمة وسردها وكذا وصفها وفق منهج معين يختاره الرحّالة بنفسه.[1] حسب ما لاحظناه في هذه الرحلة امتازت بروحها العلمية فـ"اِبن حمادوش" كما لاحظنا كان كثير الاهتمام بالمسائل العلمية، اِهتم الرحالة بالمسائل العلمية فغلب على كتاباته الطابع العلمي ودقة الوصف والتصور، فهو يركز كثيرا على الدقة والتفصيل، أما لغته علمية لأنه كان طبيبا وصيدلانيا وفلكيا.

كما تحفل الرحلة بمادة غزيرة من أسماء الأماكن وبعض التراكيب والمصطلحات الحلية التي تزيد من قيمتها لدى الباحثين، وفيها طائفة من أسماء الأعشاب التي كان يدرسها ويتعلم العلاج منها.

وذكر أكثر مغامرة أنه كان يركب المعاجين الطبية بنفسه وزعم ذات مرة أن أحدا لم يسبقه إلى (معجون صلاح) فقد قال أنه ركبه (على منوال معجون الفلاسفة، لكن لم أسبق به وسميته معجون الصلاح الواحد لأن عدد وزنه يجمعهما واحد)، وكذلك ذكر أنه أخذ شراب المصطكي عن الحكيم المغربي عبد الوهاب أدراق، وأنه تمكن من طبخه وجعل منه شرابا يعتبر من أفخر الأشربة في نظره.[2]

1- دراسة من حيث الشكل:

تعتبر الرحلة ظاهرة إنسانية عريقة ومتأصلة في حياة الشعوب منذ فجر الإنسانية، تتحدث الكتب المقدسة عن السفر والترحال في عدّة سياقات، فتارة ترد في معرض الحديث عن أفراد أو جماعات من ذلك حديث القرآن الكريم عن رحلة "سيدنا موسى والعبد الصالح" أو رحلة شخصية "ذي القرنين" ترد، في محكم التنزيل. أحيانا، تلميحات الرحلات شهيرة سواء بدافع متطلبات الحياة.

[1]– أبو القاسم سعد الله، (الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري)، المصدر السابق، ص 264.

[2]– المصدر نفسه، ص 233.

اهتم الرّحالة بالمسائل العلمية فغلب على كتاباته الطابع العلمي، ودّقة الوصف والتّصور، فهو يركز كثيرًا على الدّقة والتفصيل أمّا لغته فكانت علمية لأنه كان طبيبًا وصيدلانيا وفلكيًا.

ج- بناء الرحلة:

لطالما استحوذت رحلة ابن حمادوش على مكانة كبيرة في قلوب القراء، وهذا يرجع إلى أسلوبها المشوق السلس الذي استعان به كاتبها في تدوين أخبارها وحكاياتها، أكسبها بذلك مكانة في أوساط كتاب الرحلة آنذاك.

ثانيا: طبيعة الرحلة

أ/ الألفاظ:

إن الأساس الذي تقوم عليه اللغة هو الكلمات أو الألفاظ ولقد أسس العلماء والنقاد ومقاييسها ومواصفاتها في اللغة الأدبية وما تجمل به وما تقبح به، فدرسوا اللّفظة المفردة مألوفها والمأنوس منها والمبتذل وعن عدد حروفها وخفة حركاتها وما يصلح من ذلك للخطاب البليغ.[1]

والذي لاحظناه على الألفاظ في سياق الرحلة جاءت مألوفة بسيطة عربية غير متلبسة بالألفاظ الأعجمية أو العامية إلا في مواضيع قليلة، وحسب ذلك فهي ألفاظ مختارة منتقاة تمثل الوضوح والسهولة، ولهذا ما تقتضيه طبيعة الرحلة ومنهجها في الإخبار والإفصاح والتبليغ.

[1]– محمد مسعود جبران: فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، م/2، دار المدار الإسلامي، ط1، 2004، ص 187.

ب/ التصوير البديعي:

1/ الفواصل والأسجاع:

إن القارئ لرحلة ابن حمادوش يجد في طيات مفرداتها وكلماتها شيئًا من الإمتاع والمؤانسة، وذلك نتيجة الجرس الموسيقي الذي أبدع "اِبن جزي" في اِستحضاره بين الفينة والأخرى في محطات وصفه كما عرضنا ذلك سابقا في النثر المسجع.

2/ الجناس:

مصدر جانس الشيء بالشيء أي شاكله واتحد معه في الجنس واصطلاحا تشابه الكلمتين في اللّفظ مع اختلاف المعنى، وهو لون آخر اِستعان به الكاتب في أسلوبه ولكنه لم يكثر منه بل ظهر هنا وهناك في شتات النص، ولكن هذا اللون قليل الورود في نص الرحلة حتى لا نكاد نعثر عليه.

المحسنات المعنوية:

أ/ الطباق الإيجابي:

ونجد الكاتب لم يكثر من اِستخدام هذا المحسن البديعي.

مثال: ففي سفره "ابن حمادوش" من تطوان إلى فاس والعودة سجل ملاحظته على المروج التي مرّ بها وطيور الماء التي شهدها إذ "يقول ومن غريب ما رأيت غرتين كل واحدة في أفصحها فوق الماء تحضن بيضها فلما بلغت الميت... شهد أهل الحي...".

ب/ التكرار:

هو كما عرّف بلاغيًا: هو أن يكرر المتكلم اللّفظة الواحدة باللّفظ والمعنى المراد بذلك تأكيد الوصف..."[1]، مثل ذلك في الرحلة:" وسافرت من هذا البلد إلى مدينة تطوان..."، فنجده كرر لفظة المدينة مرة واحدة، وإستعان بالضمير الذي يدل عليها وهذا النوع من التكرار هو السائد في نص الرّحلة.

وفيما يخص المنهج الذي سلكه "اِبن حمادوش" في هذه الرّحالة قال عنه "أبو قاسم سعد الله-رحمه الله- كان يكتب مسوّدة رحلة ويؤكد هذا الرأي "الكتاني" بأنها بخط يد المؤلف نفسه ذلك أن محتواها وغير متصل، فالرّحلة كنت متنوعة ولم يلتزم الرّحالة منهجا معينًا بل قام بسرد الأحداث فيها تبعًا للتسلسل الزمني كما أكدّ أبو القاسم سعد الله أنها جزء من تراث الجزائر والمغرب وقد كتبت في العهد العثماني، وهي وثيقة مهمة للباحثين بغض النظر عن ضعف مستواه آنذاك وعن عادات الناس وأفكارهم وأخلاقهم وأذواقهم وطبائعهم.[2]

ومن هنا نستخلص أن النمط الذي اعتمد عليه الرّحالة في رحلته هو النمط السردي ويتخلله الوصف ودليل على ذلك في سرده للأحداث وتنوع المكان والزمن ووصفه للأشجار والنباتات بأنواعها.

[1]– محمد مسعود جبران، المرجع السابق، ص 301-302.

[2]– ينظر، أبو القاسم سعد الله، (طبيب الرّحالة اِبن حمادوش الجزائري)، المرجع السابق، ص 58.

الرحلة بهذه الصورة التي وضحنا لا تخرج في حقيقة الأمر عما يوضحه الرسم البياني التالي:

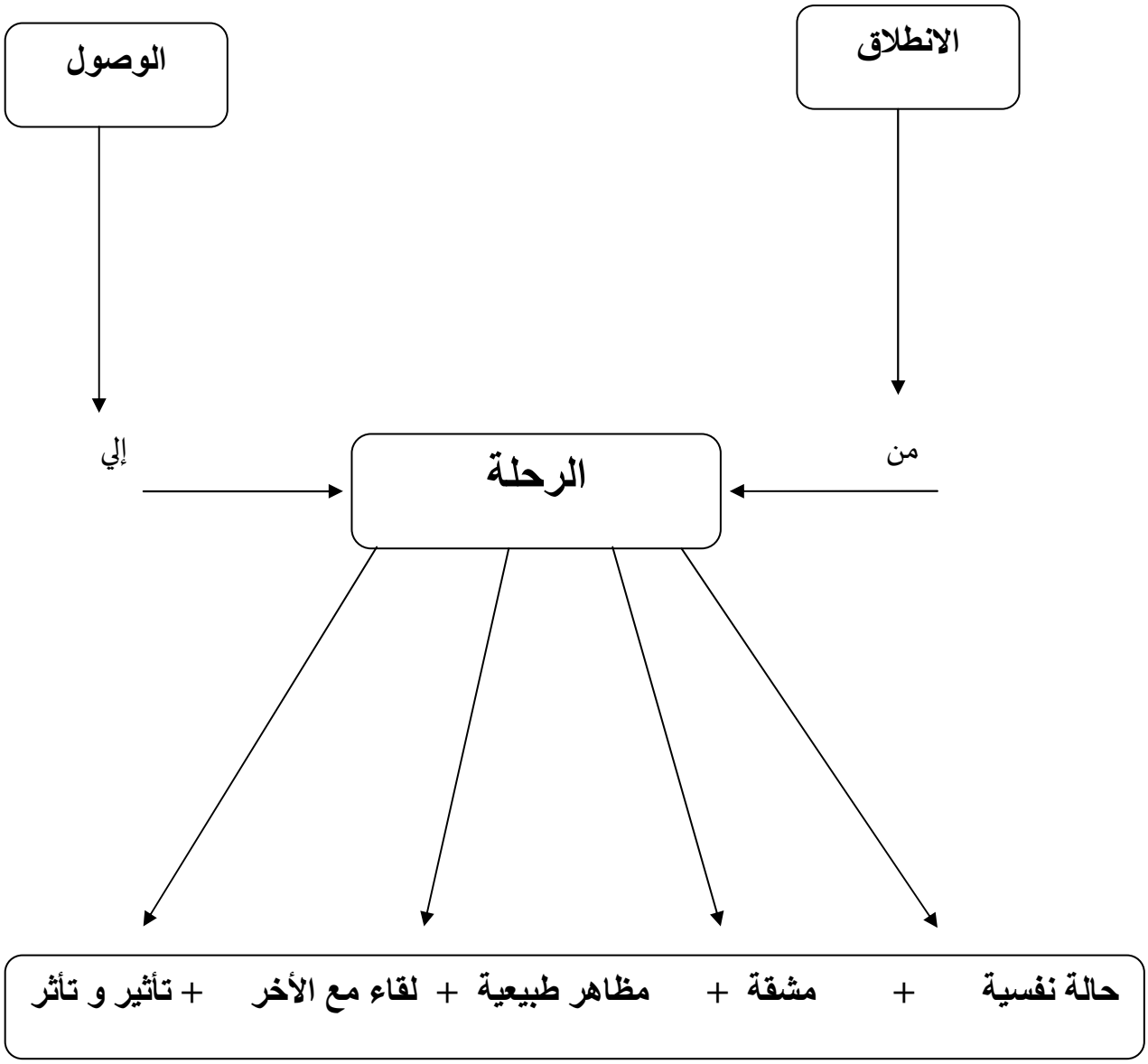

رابعا: أسلوب الرحلة ومناهجها :

شاع في الدراسات الأسلوبية أن الأسلوب باختيار والأسلوب مجموعة الامكانات التي تحققها اللغة ويشغل أكبر قدر منها الكاتب الناجح أو صانع الجمال الماهر فالأسلوب هو طريقة أو الوجهة الحقيقية أن مفهوم الأسلوب اختيار قديم في تراتنا البلاغي فقد خاضا فيه علماء البلاغة وتعرض في هذا " ابن طباطبا" "عبد القادر الجرجاني ."

يمتاز أسلوب الرحلة بالسلاسة و التتابع فهو ينتقل من فكرة أو من فاصل زمني إلى أخر كدخول عام كذا و أوله هو يوم كذا .فهو يكتب دون سجع ونلمس محسنات البديعية رغم وجودها في ذلك العصر سواء كانت اللفظية او المعنوية " .

فدخلت تطوان وصليت الظهر بها مع الجماعة ثم ذهبت إلى بيتي وكنت انضم قصيدة لأدفعها للشيخ محمد البناني ففي يوم السبت دفعتها له حين افترقنا من قراؤة البخاري[1] ".

ما لوحظ من خلال هذا النمودج انها عبارات بسيطة وغير متكلفة ومسرودة بطريقة مفصلة جدا حتى أبسط تفصيل نجده مذكور ربما هذا المريجع له..... متفردا عن بقية الكتاب الرحالة الأخرين .وظف الرحالة التكرار في سرد رحلته وهذا جلي في تعلمه للأعشاب وفي ثاني عشرة خرجت مع بعض الأخوان أحدهم يعرف الأعشاب لنتعلم منه فتعلمت الأفتمون" ربما تكرار يشكل همزة وصل بين الرحالة و رحلته، فذلك الخير يعتبر تأكيد للوقائع .فهو يكرر باستمرار بعض المواضيع التي عالجها في رحلته المميزة[2].

[1]- أبو قاسم سعد الله رحلة ابن حمادوش المسماة لسان المقال عن النبأ عن التسب والحسب والحال تح...: أبو قاسم سعد الله ص33

[2]- المصدر نفسه ص120.

خامسا: مناهجها:

أ- المنهج التاريخي :

يعد المنهج التاريخي أول المناهج النقدية في العصر الحديث وذلك لارتباطه بالتطور الأساسي للفكر الانساني وانتقاله من مرحلة العصور الوسطي إلي العصر الحديث .وهذا التطور يتمثل على وجه التحديد في بروز الوعي التدريجي حيث اعتبر المنهج دليلا جازما على أن "ابن حمادوش "كان يكتب مسودة رحلة ويؤكد هذا الرأي الكتابي على أنها مكتوبة بخط المؤلف نفسه وكل رحلاته كانت عبارة عن أحداث ووقائع شاهدها .وما لوحظ كذلك بخصوص كتابته لرحلته طغيان النمط السردي .

فهو كان يسرد كتاباته مع شيخه "ابن ميمون "كما تحدث كذالك عن أشياء من باب الصدفة ودليل ذلك هو ذكره لولاة الجزائر..... لوجود علاقة بين هؤلاء و بين شخصه[1] .

ب- المنهج الوصفي :

يرى عمر بن قينة..... في مؤلفه(الأدب الجزائرى الحديث (أن الرحلة العربية تميزت بأسلوب وصفي إذ نجد الرحالة يصف ما شاهده من معالم أكثر "ابن حمادوش "من الوصف نتيجتة للمشاهد التي صادفها فكل الأشياء وصفها وأعطاها حقها .وفيما يخص المنهج الذي سلكه "ابن حمادوش "اعتمد على دراسته الظاهرة، كما وجدها في الواقع فقام بوصفنا وصفا دقيقا وعبر عنها وقام بتوضيح خصائصها و إعطائها حقها[2] .

[1]- أبو القاسم سعد الله (الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، ص 58 .

[2]- ينظر عمر ين قينة....، المرجع السابق، ص، 113.

ملخص :

إن أدب الرحلة العربي كان في البداية و ابتداء من القرن 9م عبارة عن وثيقة تاريخية وجغرافية يهدف الرحالة من خلال رحلته إلى البحث عن معلومات جغرافية وتاريخية عن تلك البلاد التي يقصدها، أي كان يطغي على تلك الرحلات الهدف العلمي، وابتداء من القرن 12م تحولت الرحلة إلى وثيقة اجتماعية وثقافية، يسعي فيها الرحالة إلى وصف ونقل عادات وثقافات المجتمعات الأخرى فابتعد اسلوبه عن الأسلوب التقريري واقترب من الأسلوب الأدبي، وفي هذا القرن ازدهر التأليف في هذا الفن خاصة في بلدان المغرب العربي بعد أن كان منحصرا لدى المشارقة وكان الدافع الأول لمعظم رحلات تلك الفترة دافعا علميا .إذا تجهنا إلى تحديد هذه الرحلة ونسبتها إلى مؤلفها حيث أنها رحلة غايتها طلب العلم و التجارة من مدينة الجزائر إلى تطوان، فقد ألف " ابن حمادوش" هذه الرحلة الموسومة "....." وقد سماها بالرحلة .رغم انها مبنية على الأيام والشهور و السنوات[1] .

والقسم الثاني تناول فيه النشاط الشخصي في الجزائر من قراءات و تدريس وتأليف فكل أعماله كانت متميزة وفقا لمنهجية و أسلوبه الذي طغي عليه الجانب الأدبي الراقي، فهة امتهن مهنته رحابة مجيد، عبى بأسلوبه الخاص و انتهج منهجا فيه صعوبات عدة، لكن رغم هذا كتب العديد من التأليف الأدبية التي لازالت راسخة في الأذهان إلى حد الأن[2] .

تعتبر رحلة "ابن حمادوش "الجزائري رحلة معرفية واستكشافية ذات طابع أدبي راق فهي تشخص بعمق اهتمام مجموعة من الرحاليين أمثال " اليعقوبي" صاحب كتاب "اليلدان "

[1]- ينظر أبو قاسم سعد الله، (طبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري)، المرجع السابق، ص 57.
[2]- ينظر م، نفسه، ص 58.

كما انها تحكي رحلات " إبن حمادوش" المتكرر إلى البلدان مختلفة حيث عايش أحداث ووقائع وصنفها بكل دقة وموضوعية فتلك الأحداث شكلت منعرجا حاسما في حياته ورحلاته[1] .

بني الرحالة "إبن حمادوش "رحلته على الأيام والشهور والسنوات فهو ركز تركيزا كبير على التواريخ وفصل فيها دون نسيان أي حدث مهم صادفه في رحلاته المتعددة.

[1]- ينظر أبو قاسم سعد الله، (رحلة ابن حمادوش)، المصدر السابق، ص 11.

الخاتمة

الخاتمة:

تصل الدراسة إلى ختامها المفترض، لأن البحث يبقى مستمرًا وفي ختام رحلتنا مع أدب الرحلة يستلزم الأصل إلقاء الضوء على النتائج التي حصلت من خلال المقاربة التي انتهجتها الدراسة الرحلة العلمية، من حيث الشكل والموضوع في أدب الرحلة جعلتنا نكتشف ما مدى أهمية هذا الموضوع وقيمته في الأدب العربي وذلك من نواحي مختلفة سواء كانت هذه الخدمة من الناحية الأدبية أو التاريخية أو الجغرافية، فقد كانت بمثابة الخريطة التي أعانت الجغرافي في معرفة مختلف الأقاليم والمسالك دون أدنى جهد أو تعب لأنه نقلها عن الذي اتصل بالظواهر الجغرافية اتصالاً مباشراً.

- الرّحلة هي سرّ وحدة البشر، والجسر الواصل بين مختلف الشعوب والأقوام، فكيف كان لنا أن نتعرّف على حضارة شعب ما لولا تلك الرّحلات التي قام بها مغامرون صناديد شغوفين بحب العلم والمعرفة والاكتشاف تاركين حياتهم في سبيل الغوص في فضاء خلق الله واكتشاف أسراره، فبفضلهم اِستطاع الإنسان المكوث في بيته والحصول على كل ما يرغب به، وأن يرى كل مكان في الأرض أو في سماء أو في أعماق البحار والمحيطات.
- الرّحلة حافز كبيرًا لبناء شخصيّة قوية، وهذا من خلال التّجارب القاسية وحرارة المواقف وصعوبة المغامرة الذي يمرّ بها الرّحالة.
- كما أنها اعتبرت وسيلة لإثارة تلك الرّغبة التي يعتليها التفوق والطموح إلى السّيادة.
- كانت الرحلة بكافة صورها ومشاهدها وأغراضها إحدى الركائز الإنسانية في بناء الحضارة العربية الشامخة.
- لولا الرّحلة ما كنّا لنسمع عن "اِبن بطوطة"، أو "اِبن خلدون" وغيرهم كثيرًا، فمن النّادر أن نجد أديبًا وعالما لم يرتحل أو لم يسبق له أن خاض مغامرات صقلت مواهبه.

- تعتبر رحلة "اِبن حمادوش" قطعة مهمّة من تراث الجزائر الوطني خلال القرن الثامن عشر كتبت في العهد العثماني الذي تميز بالركود والجمود.
- تضم الرّحلة وثائق لا غنى عنها للباحثين في التاريخ الاجتماعي والأدبي والديني.
- تحفل الرّحلة بالمعلومات عن عصره سياسيًا واجتماعيا ودينيًا وعن معاصريه.
- تعد مصدرًا مهما في حياة المؤلف بعد أن ضاعت مؤلفاته فهي مرآة أسفار ونشاطه العلمي.
- تمتاز بالرّحلة بروحها العلمية والأدبية.
- ترتكز الرّحلة العلمية إلى قيمتين: القيمة العلمية والقيمة الأدبية.

فلا يسعنا إلاّ القول أن الّرحلة تأخذ قارئها وتغو ص به في أعماق هذا الكون مكسبة إياه الخبرة والمعرفة والعلم.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر و المراجع:

- ✓ **القرآن الكريم: رواية ورش عن نافع.**
- ✓ **المصادر:**
- ✓ **المعاجم:**

1. ابراهيم أنيس، عبد الحليم منتصر، عطيه الصوالحي، محمد خلف الله أحمد،المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، صدر 1960/1379.
2. احمد ابن فارس ابن زكرياء القزويني الرازي،معجم مقايس اللغة، بيروت، صدر ،سنة 1971.

- ✓ **الكتب:**

1. ابن منظور، لسان العرب، ط1، دار صادر، مادة رحل، بيروت، 1990.
2. أبو الحسن أحمد، بن فارس الرازي، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام بن هارون، دط، دار الجيل، م3، بيروت، دت.
3. أبو الحسن علي المسعودي: مروح الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق سعيد محمد اللحام، د.ط، ج1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000.
4. أبو القاسم سعد الله (الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري).
5. أبو القاسم سعد الله، (الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري –حياته، آثاره-) ، ط.خ، 2011.
6. أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته آثاره، ط2، دار العرب الإسلامي، بيروت، 2005.
7. أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته آثاره، ط.خ، 2011.
8. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830)، ج1، م.س.
9. أبو القاسم سعد الله، موسوعة أعلام العلماء العرب والمسلمين، م.س.
10. أبو قاسم سعد الله، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، سنة 1983.
11. بن حمادوش الجزائري: لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ج2، تحقيق
12. الدكتور أبو القاسم سعد الله، د.ط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983.

تح...: أبو قاسم سعد الله، ص33

13. حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، د.ط، سلسلة عالم المعرفة رقم 138، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، 1989.
14. حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، د.ط، عالم المعرفة، الكويت، 1989.
15. خضر موسى محمد حمود، أدب الرحلات وأشهرها أعلام العرب ونتاجهم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1991.
16. شوقي ضيف، الرحلات، ط4، دار المعارف، 1119، كورنيش النيل القاهرة، ج، م، ع.
17. عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، د.ط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2004.
18. عبد الله عثمان الياقوت، أدب الرحلة الحجازية عند الأندلس من القرن السادس حتى سقوط غرناطة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، د.ط، 2001.
19. عبد الله كرّوم، الرّحلات بإقليم توات، دراسة تاريخية وأدبية للمخطوطات بخزائن توات، دار النشر، دحلب، د.ط، 2007.
20. عمر بن قنية، في الأدب الجزائري الحديث، م.س.
21. عواطف محمد بن يوسف نواب، الرحلات المغربية الأندلسية-دراسة تحليلية مقارنة-، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1996.
22. عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية: مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين 7 و8هـ، دراسة تحليلية مقارنة، مكتبة فهد الوطنية، الرياض، د.ط، 1996.
23. فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، ط2، مكتبة الدار العربية للكتاب، مدينة نصل، يوليو2002.
24. الفيروز أبادي محمد الدين بن محمد بن يعقوب، المحيط، ط3، دار الجيل، ج3، بيروت.
25. لسان العرب لابن منظور الأفريقي المصري، بيروت، دار صادر، ج/11.
26. محمد بن أحمد بن شقرون، مظاهر الثقافة الغربية، م.س.
27. محمد بن عثمان المكناسي، الاكسير في فكاك الأسير، تح: محمد علي الفاسي، د.ط، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965.
28. محمد مسعود جبران: فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، م/2، دار المدار الإسلامي، ط1، 2004، ص 187.
29. محمود قمبر أستاذ ورئيس قسم أصول التربية بجامعة قطر، د.ط، الرحلة العلمية وقيمتها التربوية.

30. ينظر نوال عبد الرحمان الشوابكة، أدب الرحلة الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2008.

أطاريح الدكتوراه:

1. المسعود جوّادي ،أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه العلوم " تخصص الأدب العربي" الرؤية المركزية دراسة مقارنة في أنساق الخطابات الرحلية العربية والغربية.
2. حافظ محمد بادشاه، "الحجاز في أدب الرحلة العربي""، مذكرة تخرج في إطار شهادة دكتوراه، سنة 2010/2009.

المراجع باللغة الفرنسية:

1. Larousse: le dictionnaore de français, omega international sarl spéciale algérie, 2001,"voyager"p459.

الفهرس

الفهرس

مقدمة .....أ

المدخل: الرحلة الماهية والنشأة

أولا: الرحلة لغة 5

ثانيا: اصطلاحا 6

ثالثا:مفهوم الرحلة 6

أ-الرحلة لغة 6

ب- اصطلاحا: 7

رابعا:مفهوم أدب الرحلة 9

خامسا:أغراض الرحلة:.....11

1_ دوافع دينية:.....11

2- دوافع علمية أو تعلمية: 11

3- دوافع سياحية وثقافية:.....12

4- دوافع صحية:.....12

الرحلة في القرآن الكريم: 12

الفصل الأول:مفهوم الرحلة العلمية

أ/ مفهوم الرحلة العلمية: 17

- الرحلة لغة:.....17

- اصطلاحا: 17

لغة: 17

اصطلاحا:..... 17

ب/ الرحلة العلمية بحث واستكشاف:..... 19

ج/ قيمة الرحلة العلمية:..... 20

د- قيمة الرحلة:..... 20

1/القيمة العلمية:..... 22

2- القيمة الأدبية:..... 25

الفصل الثاني: ابن حمادوش وعصره

أولا: ابن حمادوش وعصره 29

ثانيا: مصادره الثقافية 31

ثالثا:مضمون الرحلة 32

أولا: موضوعات الرحلة وقيمتها 37

أ- ..... سبب تأليف الرحلة:
..... 37

ب-.....موضوعاتها:
..... 38

1- دراسة من حيث الشكل: 40

ج- بناء الرحلة: 41

الفهرس

ثاثيا: طبيعة الرحلة 41

أ/ الألفاظ: 41

ب/ التصوير البديعي: 42

1/ الفواصل والأسجاع: 42

2/ الجناس: 42

المحسنات المعنوية: 42

أ/ الطباق الإيجابي: 42

ب/ التكرار: 43

رابعا: أسلوب الرحلة ومناهجها: 45

أ-المنهج التاريخي: 46

ب-المنهج الوصفي: 46

ملخص: 47

الخاتمة: 50

قائمة المصادر و المراجع: 53

الفهرس 57